

## ملف ٢

# المطر، المطر، يُحلق فوقنا

توماس ترانسترومر

غوغول

السترة متهرئة كقطيع من الذئاب .  
 الوجه بلاطة من رخام .  
 يقتعد دائرة رسائله، في الأيكة التي يعصف فيها  
 الأزدراء والخطأ  
 والقلب ورقة تحملها الرياح في الممرات  
 الموحشة .  
 الغروب الآن ثعلب ينسلّ فوق هذه الأرض،  
 مشعلاً العشب في برهة واحدة .  
 الفضاء يحتشد بالقرون والأظلاف وتحتة  
 يمضي الحنطور كالظلّ بين  
 أفنية أبي المضاءة .

بترسبرغ والإبادة يقعان على خطّ عرض واحد

(أرأيتَ الجمال في البرج المائل)  
 وحول الأحياء الجليد، مرتدياً معطفه، يطوف المسكين  
 كقنديل البحر.

ها هو الآن، يدثره الصيام،  
 ذلك الذي كان يوماً  
 محاطاً بقطعان الضحك،  
 لكنها ارتحلت منذ زمن بعيد  
 أبعد بكثير من تخوم الشجر.  
 يا لموائد البشر المتقلبة.  
 هناك في الخارج،  
 انظر كيف نيران الظلمة تلتهبُ  
 مجرّة كاملة من الأرواح.  
 فلتركب إذاً عربتك النارية  
 ولترحل عن هذه الأرض!

### حكاية بحار

ثمة أيام شتوية قاحلة يغدو فيها البحر  
 أرضاً جبليّة، يجثم في الريش الرمادي،  
 زرقة وجيزة متناهية الصغر، ساعات طويلة يكون الموج فيها  
 أشبه بالسنانير الشاحبة  
 التي تسعى عبثاً إلى مثنى على حصى الشاطئ.

في يوم كهذا قد تخرج السفن الحطام من البحر  
 باحثة عن أصحابها اللابئين في ضوضاء المدينة،

وعمّال السفن الغرقى تجرفهم المياه إلى اليابسة،  
أكثر هزلاً من دخان الغلايين.

(السنانير الحقيقية تقبع في الشمال، ولها براثن مستننة  
وعيون حاملة. في الشمال حيث يعيش اليوم  
نهاره وليله في منجم.

حيث الناجي الوحيد يسعه الجلوس  
في موقد الشمال مصيخاً السمع  
إلى موسيقى أولئك الذين جمدهم الجليد حتى الموت).

## تأمل قلق

عاصفة تذري أشرعة الطاحونة في الأرجاء  
في ظلمة الليل، ولا تطحن شيئاً.  
تؤرقك القوانين نفسها.  
بطن الحوت الرمادي هو مصباحك الواهن.

ذكريات مبهمة تغرق في لجة البحر  
وتستحيل هناك أعمدة غريبة - عكازتك  
قد اصطبغت بخضرة الطحالب.  
ذلك الذي يخوض غمار البحر،  
يعود متيبساً.

## الزوجان

يطفئان الضوء، فيتوهج في الصباح الأبيض لبرهة  
 قبل أن يتلاشى كقرص دواء  
 في كأس من الظلمة. ثم يحدث نهوض.  
 جدران غرفة الفندق تنهض عالية إلى ظلمة السماء.

حركتهما تغدو أرق، ويغفوان،  
 إلا أن أفكارهما الأكثر سرية تبدأ بالتلاقي  
 كلونين يلتقيان ويمضيان معاً  
 على الورقة المبللة في رسمة تلميذ.

عتمة وصمت. لكنّ المدينة، بنوافذها المطفأة،  
 باتت أقرب هذه الليلة. المدينة غدت أقرب.  
 يتجمعون على مقربة شديدة  
 حشد من الناس بوجوه جوفاء.

## بعد موت

لمرة كانت صدمة  
 خلفت في إثرها ذيل مذنب طويل.  
 تمكث في الداخل. تملأ صور التلفاز بالثلج.  
 تتخذ شكل قطرات باردة على سلك الهاتف.

ما زال في وسع المرء التزلج ببطء في شمس الشتاء  
 عبر حثالة العشب حيث ما زالت بضعة وريقات عالقة.

وريقات تشبه الصفحات الممزقة من دليل هاتف قديم  
وقد ابتلع البرد الأسماء.

ما زال رائعاً الإحساس بنبض القلب  
لكن الطيف غالباً ما يبدو حقيقياً أكثر من الجسد.  
الساموراي يبدو ثانوياً  
أمام درعه السوداء من جلد التين.

### ضواحي

رجال بالأوفراول بلون التربة يخرجون من قناة ماء.  
إنه مكان عابر، أشبه بالحيد، ليس ريفاً ولا مدينة.  
رافعات البناء في الأفق تريد أن تقوم بالقفزة الكبرى،  
لكن الساعات تقف ضدها.  
الأنابيب الباطون تلعق الضوء بألسنتها الباردة.  
عربات الباعة تحتل الحظائر القديمة.  
الحجارة تلقي ظلالاً حادة كالأشياء على سطح القمر.  
وهذه الأماكن لا تني تكبر دوماً  
مثل الأرض المشتراة بفضة يوضاس: « حقل الفخار  
لدفن الغرباء ».

### منتصف الليل

نملة الخشب الصامته، تشخص  
نحو العدم. ولا شيء يُسمع سوى الندى يقطر  
من وريقات الشجر القائمة

والليل عميقاً يدمدم  
في وهاد الصيف .

الصنوبرية تقف كمثل عقرب الساعة،  
وشائكة. النملة تتوهج في ظل الهضبة.  
طائر يزعق! وأخيراً. حشود الغيم  
تدحرج قدماً.

### خاتمة

ديسمبر. السويد سفينة بلا أشرعة  
مركونة على الشاطئ. إزاء سماء الغروب  
تبدو صواريتها ناصعة. والغروب يستمر أكثر  
من اليوم - الطريق إلى هنا حصوية:  
لا يصل الضوء قبل منتصف النهار  
ويرتفع كولسيوم الشتاء  
مضاء بغيوم وهمية. في الآن نفسه  
ملتفة تتصاعد الأدخنة البيضاء  
من القرى. الغيوم شاهقة جداً.  
البحر يتنفس في وجه جذور شجرة السماء  
ذاهلاً، وكأنه يصغي إلى شيء آخر.  
( فوق الجانب القائم من الروح  
يحلق طائر موقظاً  
النيام بزعيقه. يدور التلسكوب، يلتقط زمناً آخر،  
وها هو الصيف: جبال في الأسفل،  
حبل بالضوء والجدول يرفع أشعة الشمس

بيده الشفافة... ثم يدوي هذا كله  
كما الفيلم في عتمة المسلاط).

الآن ضوء نجمة المساء يتخلل الغيوم.  
البيوت، الأشجار- الأسيجة، تغدو أضخم، تنمو  
في الانهيار الصامت للظلمة؛ كما جبال الجليد.  
وتحت النجمة يتشكل المزيد والمزيد  
من المشهد الآخر، الخفي، ذلك الذي يحيا  
حياة الظلال في شعاع الليل السيني.  
ظلّ يجرّ زلاجه بين البيوت.  
إنهم ينتظرون.

إنها الساعة السادسة. الريح تهرع في شارع القرية،  
في الظلمة، مثل فرقة من الخيالة. كيف  
للرهج الأسود أن يردّد أصداً الأصداء!  
البيوت عالقة في رقصة دائمة،  
ولها صخب الأحلام. عصفه بعد عصفه  
تتهادى مبتعدة فوق الخليج  
إلى البحر المفتوح الذي يتقلب في العتمة.  
في فضاء تومض فيه النجوم بغير انقطاع.  
غيوم متسرّعة تضيؤها وتخمدها،  
بحيث أنها حيث تلقي ضوءاً تخون  
حضورها، كنجوم الماضي التي تطوف  
عبر الأرواح. عابراً  
بالإسطنبول أسمع وسط هذه الجلبة كلها  
الحصان يمشي في الداخل.  
والعاصفة تستعدّ للرحيل

عند بوابة محطمة لا تني تفرع وتفرع، مصباح  
يتأرجح على يد، حيوان يهتمهم  
مدعوراً على الهضبة. رحيل يعصف مدمماً  
فوق سقوف الحظائر، الهدير  
في أسلاك الهاتف، الصفير المجلجل  
في بلاطات سقف الليل،  
والأشجار عاجزة تتمايل.

أنين مزامير تصدح!  
أنين مزامير على الخطى عينها! محررون.  
موكب. غابة تزحف!  
موجة محدودية تبرطم والعتمة تتقدم،  
ومعها اليابسة والمياه. والموتى،  
مختبئون تحت المركب، إنهم معنا،  
معنا على الطريق: رحلة، نزهة،  
ليست بالسير المتعجل بل تمنح الأمان.  
والعالم دوماً يحمل خيمته ويمضي.  
ذات يوم صيفي تمسك الرياح  
بصواري السنديان، وتقود الأرض قدماً.  
زنبق الماء يجدف بقدمه الوترية المخبوءة  
في عناق البحيرة الهاربة.  
صخرة تتدحرج بعيداً في ردهات المسافة.  
في الغروب الصيفي تلوح الجزر وهي تنهض  
في الأفق. في دربها تنسحب القرى القديمة  
أعمق نحو الغابات  
على عجالات الموسم



مع نعيب الغربان .  
حين يخلع العام جزمته،  
والشمس  
تتسلّق أعلى،  
وتكسو الوريقات الأشجار  
التي تمتلئ بالريح وتبحر حرّة.

### بيوت سويدية متوحّدة

خليط من الصنوبريّة السوداء  
وأشعة القمر المدخّنة .  
هنا الكوخ خفيضاً يلبث  
ولا إشارة على الحياة .

حتى الصباح يدمدم الندى  
ورجل عجوز بيديه المرتعشتين  
يفتح نافذته  
ويطلق البوم .

في البعيد، البناية الجديدة  
تقف وسط الأبخرة  
حيث فراشة الغسيل  
ترفرف في الزاوية

وسط غابة محتضرة  
حيث التحلّل يقرأ

بنظارات من الوهن  
موكب حفّاري اللحاء .

الصيف ذو المطر الكتّاني الربو  
أو سحابة رعد مستوحشة  
فوق كلب ينبح .  
البذرة تنبض في داخل التربة .

أصوات هائجة، وجوه،  
تطير عبر أسلاك الهاتف،  
على أجنحة سريعة غير مكتملة النموّ  
عبر أميال من المستنقعات .

البيت على جزيرة في النهر  
يقعي فوق أساساته الحجرية .  
دخان سرمدّي - إنهم يحرقون  
أوراق الغابة السريّة .

المطر يندفع في السماء .  
الضوء يلتفّ في النهر .  
البيوت على المنحدر تطلّ  
على ثور الشلال الأبيض .

الخريف مع سرب من طيور الزرزور  
أمسك بالفجر دون حراك .  
البشر يتحركون بصعوبة

على نور الصباح .

فليشعروا دونما ارتياح

بالأجنحة المموّهة

وبقدرة الربّ

تتكوّر في العتمة .

### الرجل الذي أفاق على الغناء فوق السطوح

صباح . مطر أيار . المدينة ما زالت ساكنة

مثل ناسك جبلي . الشوارع صامتة . وفي

السماء تهدر طائرة خضراء مزرقّة .

النافذة مفتوحة؟

الحلم حيث النائم يتمدّد أرضاً

يغدو شفافاً . يتحرّك ، يبدأ

بتلمّس آلات التنبّه -

تقريباً في الفضاء .

### صورة لطقس

بحر أكتوبر يلتهم ببرودة

بزعنفته المتشكلة من الأوهام .

لم يبق شيء يذكّر

بالدوار الأبيض لسباقات الزوارق .

شعاع كهرمانيّ فوق القرية .  
وكل الأصوات في طيران بطيء .

نباح كلب هو حروف هيروغليفية  
كتبت على الهواء فوق الحديقة

حيث الثمرة الصفراء تحتال على الشجرة  
وتسقط بحريّة كاملة .

أسرار على الطريق

نور النهار سطع على وجه رجل نائم .  
صار حلمه أكثر حياة  
لكنه لم يفتق .

الظلمة سطعت على وجه الرجل الذي مشى  
بين الآخرين في الضوء المتوهّج  
للأشعة المستعجلة .

فجأة أعتمت كمثل وابل من المطر .  
وقفت في غرفة ضمّت اللحظات كلها -  
متحف الفراشات .

والشمس ساطعة لا تزال .  
كانت بفرشاتها العجولة ترسم العالم .

## آثار

الثانية بعد منتصف الليل : شعاع القمر . القطار توقّف  
في وسط السهل . في البعيد ، نقاط من الضوء في بلدة  
ترتعث ببرود في الأفق .

كما حين يسقط أحدهم في حلم سحيق جداً  
حتى لا يعود يذكر أنه كان هناك  
حينما يعود إلى حجرته .

كما حين يغرق أحدهم في مرض عميق جداً  
حتى يغدو جماع أيامه بضع نقاط مرتعشة ، سرب من النقاط ،  
بارد وصغير في الأفق .

القطار يقف في سكون تام .  
الثانية بعد منتصف الليل : قمر يتوهج ، ونجوم قليلة .

## ابتهال

أحياناً كانت حياتي تفتح عينيها في الظلمة .  
إحساس وكأن حشوداً تمضي عبر الشوارع  
بعماء وجزع سعيّاً إلى معجزة ،  
بينما أقف غير مرئي حيث أنا .

مثل طفل ينام مرعوباً  
مصغياً إلى خطى القلب الثقيلة .

ببطء، ببطء، حتى يضع الصباح  
شعاعه في الأفقال وتفتح أبواب العتمة.

### سجن

١٩٥٩ (تسع قصائد هايكو من سجن هلبى للأحداث)

يلعب الأولاد كرة القدم.  
ارتياح مفاجئ - الكرة  
قفزت فوق الجدار.  
\*\*\*

جلبة أكثر من الضروري  
فقط لترويع الوقت  
لكي يمضي قدماً.  
\*\*\*

خطأ تلفظ تلك الحيوانات،  
الجمال يبقى  
مثلما الوشم.  
\*\*\*

حين أمسكوا بالهارب  
كانت جيوبه ملاءى  
بفطر الإنائية.  
\*\*\*

جلبة تنبعث من المشاغل  
وخطوات برج المراقبة الثقيلة  
قد أربكت الغاية.  
\*\*\*

الأبواب العالية توصل.  
إننا في باحة السجن  
في موسم جديد.  
\*\*\*

مصابيح الجدران مضاءة -  
طائر الليل يرى لطخة  
ذات لمعان غير حقيقي.  
\*\*\*

جرّافة عملاقة  
تمرّ هادئة في الليل. أحلام  
الرفاق المساجين ترتعش.  
\*\*\*

الصبي يشرب الحليب وينام  
آمنًا في أحضان زنزانته،  
أمه الحجرية.

## رجل من بنين

( حول صورة فوتوغرافية لتمثال برونزي يعود إلى القرن الخامس عشر من بنين في أفريقيا – وتمثل يهودياً برتغالياً )

حين هبطت العتمة كنت ساكناً  
لكنّ ظلي أخذ يقرع  
على طبل اليأس .  
و حين أخذ القرع في الخفوت  
رأيت صورة صورة  
لرجل يمشي قدماً  
في فراغ صفحة  
تركت مفتوحة .  
كما المرور ببيت  
هجر منذ أمد بعيد  
وترى أحدهم على النافذة .  
رجل غريب . كان هو الملاح .  
بدا وقد رأني .  
اقترب مني دون أن يخطو .  
في قبعة اتخذت شكل  
نصفنا نحن من الكرة الأرضية  
مع حرف عند خطّ الاستواء .  
الشعر انقسم زعنفتين .  
اللحية تدلّت معقوصة  
حول فمه كالبلاغة .  
كان يطوي ذراع اليمنى .  
الواهنة كذراع طفل .



والنسر الذي كان ينبغي أن يحطَّ  
على ذراعه  
نبت من ملامحه .  
كان السفير .  
وقد قوطع وسط خطاب  
واصله الصمت  
بقوة أكبر .  
كان يكتنف على ثلاثة أقوام صامتين .  
كان صورتهم .  
يهودي من البرتغال  
أبحر مبتعداً مع الآخرين ،  
مع قطيع الضائعين والمنتظرين ،  
في المركب الذي كان  
بمثابة أمهم الخشبية الرؤوم .  
بلغوا اليابسة في جوٍّ غريب  
محتشد بالفرو .  
لحه في السوق  
صانع السبائك الأفريقي .  
طويلاً أقام في محجر عينيه .  
ثم ولد في جنس المعدن :  
« لقد جئت لأراه  
ذلك الذي يرفع المصباح  
لكي يرى نفسه في » .

## مملكة اللا استقرار

وكيلة الوزارة تنحني وترسم حرف إكس  
ويتدلى قرطها كسيف ديموقليس .

كما تختفي فراشة ملونة في الحقل  
تمتزج العفاريات في الصحيفة المفتوحة .

خوذة لا يعتمرها أحد استولت على السلطة .  
السلحفاة الأمّ تفرّ طائرة تحت الماء .

## نيسان وصمت

الربيع يضطجع مهجوراً .  
قناة الماء المخملية الداكنة  
تنسلّ بجائني  
دون انعكاسات .

ليس يلمع  
سوى الزهور الصفرة .

يكتنفني ظلي  
كمثل كمان  
في علبته لسوداء .

الشيء الوحيد الذي أريد قوله

يتألاً متلاشياً  
كالفضة في متجر الرهونات .

### ورقة من كتاب الليل

بلغت الشاطئ ذات ليلة من أيار  
وكان ضوء القمر متجلداً  
ورمادية كانت الأعشاب والزهور  
إنما خضراء الضوع .

ارتقيت سفحاً  
في الظلمة الدامسة  
بينما الحجارة البيض  
تومئ نحو للقمر .

### مدى زمني

بطول دقائق معدودات  
وعرض ثمانية وخمسين عاماً .

وخلفي  
وراء المياه الملتمة كالرصاص  
كان الساحل الآخر  
وأولئك الذين في يدهم زمام القيادة .

أناس يلبسون المستقبل  
بدلاً من الوجوه .

## منظر طبيعي مع شمس

الشمس تنسلّ من وراء البيت  
وتتوسّط الشارع  
وتلقي علينا  
أنفاسها القرمزية.  
يجب أن أرحل عنك يا «إنسبروك»<sup>١</sup>.  
لكن في الغد  
ستقف شمس ساطعة  
في الغابة الرمادية شبه الميتة  
حيث علينا أن نعمل ونعيش.

## مدينتان

على ضفتي المضيق  
إحداهما تغرق في العتمة، تحت سيطرة العدو.  
وفي الأخرى تشتعل المصابيح.  
الشاطئ المتوهج بنوم مغناطيسياً ذلك الغارق في العتمة.

أسبح منتشياً  
في المياه المتلألئة بالسواد.  
يقرع بوق مكبوت.  
إنه صوت صديق، احمل تابوتك وامض.

١ إنسبروك: مدينة نمساوية هي عاصمة ولاية تيرول الواقعة غربي البلاد. وعبارة «يجب أن أرحل عنك يا إنسبروك» هي عبارة في أغنية ألمانية شهيرة تعود إلى القرن الخامس عشر.

## منتصف الشتاء

ضوء أزرق  
يتدفق من ملابسي .  
منتصف الشتاء .  
دخول من الجليد تخشخش .  
أغمض عيني .  
ثمة عالم صامت ،  
ثمة صدع  
لتهريب الموتى  
عبر الحدود .

## قصائد هايكو

I

خطوط التوتر العالي  
المشدودة في مملكة البرد الهشة  
إلى الشمال من كل موسيقى .  
\*\*\*

الشمس البيضاء، تتمرّن بمفردها  
تجري المسافة الطويلة  
إلى جبال الموت الزرقاء .  
\*\*\*

نحتاج إلى أن نتواجد  
مع زخارف العشب الرائع  
وضحكات القبو.  
\*\*\*

الشمس منخفضة الآن.  
ظلالنا عملاقة.  
ليس سوى الظلّ عما قريب.

## II

شجرة الأوريكيديا تزهر.  
ناقلات النفط تمرّ من هنا.  
والقمر في اكتمال.

## III

غابة قروسطية،  
مدينة غريبة، إسفنكس بارد،  
حلبات فارغة.  
\*\*\*

ثم همست وريقات الشجر:  
خنزير بريّ يعزف الأرغن.  
وكل الأجراس ترنّ.  
\*\*\*

والليل يتدفق  
من الشرق إلى الغرب،  
على إيقاع القمر.

#### IV

زوج من اليعاسيب  
يلتصق واحدهما بالآخر  
مرّا يخفقان .  
\*\*\*

حضور الرب .  
في نفق شدو الطيور  
ينفتح باب موصد .  
\*\*\*

أشجار البلوط والقمر .  
ضوء و كو كبات صامته .  
والبحر المتجلّد .

#### كما حين تكون طفلاً

كما حين تكون طفلاً وإهانة هائلة  
توضع فوق رأسك ككيس؛  
عبر درزات الكيس تلمح ومضات من الشمس  
وتسمع دندنة شجر الكرز .

لكنّ بلا جدوى، فالمهانة الكبيرة  
تغطي رأسك وجذعك وركبتيك  
ومع أنك تتحرك عشوائياً  
فإنك لا تستطيع أن تسعد بالربيع.

غطّ وجهك بقبعة الصوف الشفافة  
وانظر عبر النسيج.  
على الخليج، تحتشد صامته دوائر الماء.  
وريقات شجر خضراء تعتم الأرض.

### صمت

تابع طريقك، إنهم مدفونون...  
غيمة تنسلّ فوق قرص الشمس.

المجاعة مبنى طويل  
يطوف في الليل

في غرفة النوم ينفتح باب مصعد  
عمود قائم يشير إلى الداخل.

زهور في المزراب. جلبة وصمت.  
تابع طريقك، إنهم مدفونون...

أدوات المائدة تنجو في قطعان ضخمة  
هناك في الأعماق، في ظلمة الأطلسي.



## من الجزيرة، ١٨٦٠

### I

ذات يوم بينما تشطف الغسيل على رصيف الماء،  
نهض برد الخليج القارس عبر ذراعيها  
وتسلل إلى حياتها.

دموعها تجلّدت إلى نظارات .  
الجزيرة رفعت نفسها مستعينة بأعشابها  
وراية سمك الرنكة ررفت في الأعماق .

### II

وسرب الجدريّ لحق به،  
واستقرّ على وجهه .  
يضطجع ويحملك في السقف .

كيف جدّفت عبر الصمت .  
لطخة الآن المتدفقة أبداً،  
نقطة الآن النازفة أبداً.

## من تموز، ١٩٩٠

كانت جنازة  
واستشعرت أن الميّت  
يقرأ أفكاره  
أفضل مني .

ظلّ الأرغن صامتاً، وصدحت الطيور .  
الحفرة مفتوحة على الشمس .  
صوت صديقي لبث  
في الطرف الأبعد من الدقائق .

عدت بسيارتي إلى البيت  
شفافاً بسطوع النهار الصيفي  
بالمطر والسكون  
بضوء القمر .

### ضوء يتسلل إلى الداخل

خارج النافذة يقبع حيوان الربيع الطويل،  
تين شعاع الشمس الشفيف  
يمرّ بنا كمثلي  
قطار عمومي لا نهائي - لم نفلح قطّ في رؤية رأسه .

على امتداد الواجهة البحرية  
نرى الدور الفخورة كالسرطانات .  
الشمس تجعل عيون التماثيل تطرف .

الاشتعال النائر في الفضاء  
يتحوّل إلى عناق .  
لقد بدأ العدّ التنازلي .

### مخطّط لوحة من العام ١٨٤٤

وجه وليام تورنر صار بنياً بفعل المناخ؛  
لقد وضع مسند اللوحات بعيداً في الأمواج المتكسّرة .  
نتبع السلك الفضّي المخضّر نزولاً إلى الأعماق .

يشقّ طريقه في المياه الضحلة لمملكة الموت .  
يهدر قطار نحو المحطة . يقترب أكثر .  
المطر، المطر، يحلّق فوقنا .

ترجم المختارات إلى العربية الشاعر : سامر أبو هوّاش

### هامش

القصائد المترجمة في هذا الملف هي من مجموعات: «اللغز الكبير» (٢٠٠٤)، «جندول الحزن» (١٩٩٦)، «تناغمات وآثار» (١٩٦٦)، «السماء نصف المكتملة» (١٩٦٢)، «أسرار على الطريق» (١٩٥٨)، و«١٧ قصيدة» (١٩٥٤). وقد اعتمد في نقلها إلى العربية على ترجمات روبرت بلاي وروبن فولتن وباتي كراين إلى الإنجليزية.